من الشخصانية التواصلية إلى الشخصانية الواقعية

نقد للمجتمع الصناعي

From communicative personalism to realistic personalism/ critique of industrial society

أحمد باجي[1]
"قسم العلوم الاجتماعية" جامعة مولود معمري– تيزي وزو
badjihmed@gmail.com

تاريخ الوصول 29 /2020/11 القبول 2021/04/19 النشر علي الخط 2021/09/15
Received 29 /11/2020 Accepted 19/04/2021 Published online 15/09/2021

ملخص:

يعتبر الاتجاه الشخصاني من بين أهم التيارات الفلسفية التي تناولت إشكالية الحضارة الغربية الصناعية بالتحليل والنقد وبكثير من التشريح أدى في نهاية الأمر إلى إبراز أهم آثارها السلبية التي انعكست بشكل واضح على سلوكيات الأفراد خاصة منها الفكرية والأخلاقية، ويعتبر "امانويل مونييه" "Emmanuel Mounier" من بين أهم الفلاسفة الشخصانيين الغربيين الذين تناولوا هذه الإشكالية برؤية فلسفية ثاقبة في مختلف مؤلفاته، وخاصة في مقالاته التي نشرت على صفحات مجلة "فكر" Esprit، ومن ناحية أخرى يعتبر "محمد عزيز الحبابي" أهم ممثل لهذه النزعة الفلسفية في الوطن العربي الإسلامي، حيث تناول كذلك في مختلف مؤلفاته إشكالية الحضارة الصناعية و ما ترب عنها من آثار سلبية وكيف انعكست تلك الآثار على سلوكات الأفراد في العالم العربي الإسلامي، ذلك ما دفعنا في هذا المقال إلى تناول الإشكالية التالية، ما موقف كل من مونييه والحبابي من الحضارة الصناعية؟ وهل حقا الحضارة الصناعية أفرزت أزمة على مستوى الفرد والجماعة؟. ذ

الكلمات المفتاحية: الشخصانية ؛ الحضارة ؛ المجتمع ؛ الفرد ؛ الشخص ؛ الدين

SUMMARY

The personalism direction is considered as one of the Important philosophie al currents which take the problematic of the western industrial civilization with analyzing and criticizing it and this is finally leads to show its Important negative effects that were reflexed clearly on the person behaviours especially their thinking and moral behaviours "Emmanuel Mounier" is considered as one of the important western personalism philosophers who took this problematic with philosophical view in his different compositions especially in his articles which were published in the pages of the magazine "thinking" Esprit, from another side "Mohamed Aziz El Hababi" is considered as the most important representative of this philosophical inclination in the Arabic Islamic world, he took also in his different composition the problematic of the industrial civilization and its negative effects and how that effects were relexd on the behaviours of people in the Arabic Islamic world and that pushes us in this interference to take the following problematic "what are the opinions of Mounier and El Hababi about the industrial civilization? And is it really that the industrial civilization resulted crisis on the level of the person and the group?

Keywords: Personality; Civilization; Society; The individual; The person; Religion.

[1] المؤلف المرسل: أحمد باجي الإيميل:badjihmed@gmail.com

تقديم:

تعرف الحضارة على أساس أنها تفاعل بين مختلف الجوانب المادية والروحية والإبداعية التي تتشكل منها المجتمعات، فالجانب المادي منها هو كل ما تحتاجه المجتمعات من حاجيات اقتصادية، أما الجانب الروحي فيمثل مختلف العادات والقيم و الأخلاق والدين، أما الجانب الإبداعي فيكمن في مختلف ما يبدعه الإنسان سواء تعلق بالجانب العلمي أو تلك الطرق العملية التي تيسر له الحياة، كل هذا متفاعل فيما بينه، يشكل ما يعرف بالبعد الحضاري للمجتمعات، ولذلك عرفها "ليتري" "Littré" بقوله: أن المدنية تعني "مجموع الآراء والأعراف التي تنتج عن تفاعل الحرف والصناعة مع المعتقدات والآثار الجميلة والعلوم"[1]، فلفظ الحضارة إذن، هو لفظ عام يشمل التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني الذي يمكن أن ينتقل من جيل إلى آخر في مجتمع واحد، أو عدة مجتمعات، وعلى ضوء ذلك جاءت على سبيل المثال تسمية "الحضارة الصينية" والتي يشكلها مجتمع واحد، أو تسمية "الحضارة الغربية"، وتسمية "الحضارة الإسلامية"، والتي تشكلها عدة مجتمعات، ولذلك نجد أن جميع المجتمعات تسعى من أجل أن تكون مجتمعات متحضرة، لأن ذلك يحقق لأفرادها المزيد من التطور العلمي والثقافي، ومزيدا من الرّفه الاقتصادي والاجتماعي.

إن التوازن الحضاري لأي حضارة يتوقف على عاملين، فالعامل الأول هو عامل مادي، ويتمثل في توفير الحضارة للإنسان كل ما يحتاجه من حاجيات مادية، أما العامل الثاني، فهو روحي ويتمثل في جملة القيم الأخلاقية والدينية، وهو عامل مهم في تكوين شخصية الإنسان، فهل هذا المفهوم ينطبق على الحضارة الغربية الصناعية؟ وهل هذه الحضارة الصناعية قد خدمت الإنسان بصفة عامة؟ أم أنها هدمت شخصيته وعرقلت تشخصنها؟. من بين التيارات الفلسفية المعاصرة التي طرحت هذه الإشكالية التيار الشخصاني، ومن بين الأسماء التي تناولت هذا الموضوع بالنقد والتحليل "إمانويل مونييه" الذي يمثل الشخصانية التواصلية في الفكر الغربي المعاصر، و"محمد عزيز الحبابي" الذي يمثل بدوره الشخصانية الواقعية الاسلامية في الفكر العربي الإسلامي المعاصر.

أولا: الشخصانية التواصلية من التقوقع على الذات إلى التفتح على الآخر

1. مونييه و الشخصانية التواصلية:

يعتقد مونييه أن التناقضات الاقتصادية والأزمات التي أفرزها النظام الرأسمالي، هي التي أدت إلى انتشار ونشوء الكثير من الفلسفات خلال القرن العشرين، ففي ظل أزمة 1929العالمية، نشأت "الشخصانية" كرد فعل أمام ماساد العالم من تطور اقتصادي وصناعي هائل، وسيطرة الآلة على الإنتاج الاقتصادي واكتساح النزعة الفردانية المنفعية للعلاقات الإنسانية وعلاقات الأفراد فيما بينهم، فأصبحت تحكمها المصالح والمنافع، فانعكس ذلك سلبا على شخصية الفرد، بإفراغها لطاقته الروحية والأخلاقية، التي تعتبر الموجه الحقيقي لسلوكاته وعلاقاته مع الآخرين، إذ أصبح سلوك الإنسان وحتى الإنسان في حد ذاته واقعا تحت سيطرة الآلة الصناعية التي جعلت سلوكاته آلية، فأصبح مجرد آلة راكضة وراء الربح السريع بمختلف الطرق والوسائل.

إن إنسان القرن الماضي والقرن الحالي عاش ومازال يعيش حتى اليوم هذه الأزمة، وهي أزمة القيم التي أفرزها النظام الصناعي السائد في العالم، والذي تأسس على أساس الدعوة إلى الفردانية القاتلة وتحرير الإنسان من جميع القواعد الأخلاقية التي من المفروض أن توجه سلوكه، لذا ثار الكثير من المفكرين الأوروبيين فجاءت أفكارهم كرد فعل على هذه النزعة الرأسمالية، سواء كانت تلك الأفكار قد أخذت طابع الفلسفة الوجودية، أو اندرجت ضمن إطار الفلسفة الشخصانية التي كانت ضمن "الفلسفات التي نشأت

[1] – Littré في تعريف له أورده محمد عزيز الحبابي في كتابه، من المنغلق إلى المنفتح، ترجمة محمد برادة، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1971م، ص 27.

في أوروبا في بداية القرن العشرين، معبرة عن ردود فعل بعض المفكرين أمام سيادة التقدم الصناعي الهائل واكتساحه لمختلف مظاهر الحياة "[1].

إن المتفحص للعلاقات العامة الموجودة بين الأفراد داخل المجتمع الواحد أو بشكل عام للعلاقات الموجودة بين شعوب المعمورة، فإنه يلاحظ أن هذه العلاقات أصبحت اليوم لاتخضع لأي معيار أخلاقي، ولايحكمها أي قانون مدني، ولا تقننن سلوكاتها داخل أطر أخلاقية وقانونية توجهها، بل تسيطر عليها أخلاق المنفعة والمصلحة فقط.

إن إنسان القرن الحالي هو إنسان أناني يفكر في مصلحته فقط، فقد تم قتل ضميره الأخلاقي الذي يمثل الوازع الداخلي له، والضامن لسلوكه، ف "هيمنت على العلاقات البشرية نزعة آلية واختفت القيم الأخلاقية لتحل محلها قيم المصالح المادية العارضة"[2].

إننا لانكر ما أدى إليه التطور الصناعي من تسهيل لسبل الحياة والرّفه الاقتصادي، الذي كان كنتيجة حتمية لتطور المكننة، فانعكس إيجابا على حياة الإنسان، لكن بالمقابل أنتجت لنا هذه الحضارة إنسانا محطما نتيجة للأزمات المتتالية التي يعيشها سواء في الميدان الاقتصادي أوعلى المستوى الأخلاقي، أنتجت لنا حربين عالميتين، أدت إلى أقطاب متصارعة، عبرت عنها بكل وضوح تلك النزعة العدمية، التي تجلت بشكل واضح في فلسفة "نيتشه"[3]" Nietzsche Friedrich"(1900/1844)و"دوستوفيسكي" "Dostoyevsky Feodor Mikhailovich" (1881/1829) فأصبح الإنسان لايعرف من هو، ويعتقد أن كل شيء مباح، وفقد الثقة بالإله حتى أن "نيتشه" أعلن موته، لقد"فقد الناس الإيمان بالإله بل حتى في ذواتهم واعتقد آخرون أن كل شيء مباح للإنسان وأنه تحررمن أي قيد "[4]

وفي خضم هذه المأساة الإنسانية التي ولدتها الحضارة الغربية، وهذا التيه المعرفي، والثقة المهزوزة في الإنسان كإنسان وفي الإله كإله،كتب "مونيه" الذي يعتبر أهم ممثل للشخصانية في فرنسا "لقد ولدت الحركة الشخصانية في ظل الأزمة التي بدأت عام 1929 إلى جانب إفلاس الشارع الفرنسي الذي استمر أمام أعيننا بعد ندب الحرب العالمية الثانية"[5].

2. الشخصانية التواصلية /من الكائن إلى الشخص:

إن شخصانية مونييه تضع نصب عينيها الشخص، فهي ترجع هذه الأزمة التي يعيشها الإنسان إلى أزمة روحية أخلاقية أدت إلى إفلاس الإنسان من قيمه، إنها أزمة تعبر عن مدى الانهيار الإيماني والروحي والأخلاقي الذي لحق الإنسان، ف "هذه الأزمة هي في الوقت نفسه أزمة اقتصادية، أزمة روحية، أزمة البنى وأزمة إنسان"[6].

1-كمال عبد اللطيف، أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب، المركز الثقافي العربي، المغرب ، ط1 2003، ص 38.

2-ت. أ. ساخاروفا، من فلسفة الوجود إلى البنيوية (دراسات نقدية للاتجاهات الرئيسية)، ترجمةوتقديم أحمد برقاوي، دار دمشق، ط1، 1984م، ص 100.

3_هو فيلسوف الماني مؤسس فلسفة القوة، ومن أعظم الفلاسفة تأثيرا في القرن العشرين من أهم مؤلفاته، الرحالة وظله، العلم المرح، نسب الأخلاق، وهكذا تكلم زارادشت. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة،ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984م، ص 508.

4_ت. أ. ساخاروفا، من فلسفة الوجود إلى البنيوية (دراسات نقدية للاتجاهات الرئيسية)، مرجع سابق،ص 100.

5_ المرجع نفسه، ص 99.

6_المرجع السابق، ص 99.

فإذا كانت الأزمة بطبيعة الحال في أصلها أزمة اقتصادية، "الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929م" فإن ما تولد عنها حتما أزمة في البنية الاجتماعية و تفكك الوحدات المكونة للنسق الاجتماعي، فكان محور هذه الأزمة هو الإنسان، لأنه النواة الأساسية لبناء المجتمع، كما أن التطور الاقتصادي هو نتيجة لإنسان ذي أبعاد شخصانية، وهو الذي يضمن الاستمرارية الحضارية، ولكن إذا ما تعرض هو في حد ذاته إلى أزمة، فإن الحضارة في جانبيها الاقتصادي والاجتماعي مآلها التصدع والإفلاس، فالإنسان هو نواة التفكير الشخصاني، وهو القيمة المطلقة لديها، فهو بدايتها ونهايتها، لذلك فهي تحمل على عاتقها مسؤولية إعادة ردم التصدع الذي أصاب الإنسان من خلال الاهتمام بقيمه الروحية التي مصدرها الطاقة الإيمانية التي تستلهم من الإيمان الديني.

إن الشخص لايحمل قيمة في ذاته، إلا إذا كان في إطار اجتماعي، فالشخص تكمن قيمته في وحدته المجتمعية، وما المجتمع إلا شخصية الشخصيات، لأنه أصلا يتشكل من هؤلاء الأشخاص الذين يمارسون تشخصنهم داخل وحدته المجتمعية، فالمجتمع الأمثل حسب الشخصانيين هو ذلك المجتمع المتشخصن الذي يعبر عن وحدة شخصية، تمثل الأشخاص المنضوين تحتها، وفقا لتلك الرؤية اعتبر "مونييه" المجتمع ذا طبيعة شخصانية "وماهو إلا « شخصية الشخصيات » ولهذا فإن إصلاحه وبناء مجتمع حقيقي يخلق ضرورة بعث الشخصية الروحية"[1].

إن الشخص في فلسفة مونييه هو الوحدة الأساسية لتكوين المجتمع، فإن كان مفعما بقيم روحية مصدرها الطاقة الإيمانية، فبطبيعة الحال فإن صلاح المجتمع من صلاح الشخص والعكس، إذا نزع إلى وحدة فردية منعزلة مغلقة على ذاتها في سياج دوغماتي، فإنه يلحق الضرر بذاته، قبل أن يلحق الضرر بالآخرين لذا ينظر "جان لاكروا " إلى المجتمع ليس بشكل عام وإنما ينظر إليه على أساس أنه يتشكل من شخصيات متعددة، وهذه الشخصيات هي أساس التكوين المجتمعي، هذه الشخصيات تشع فيها ثورة حيوية وطاقة روحية منبثقة من إله[2].

إن الفكر الشخصاني يأخذ على عاتقه مسؤولية كبرى، وهي إعادة المفهوم الحقيقي للإنسان الذي تشرنق بين مفهومي المثالية والمادية، "فلقد رأى الماديون في هذه الأزمة أزمة بنى فقط قالوا غيروا هذه البنية فيمحى المرض، أما المثاليون فلقد رأوا فيها أزمة إنسان لذلك صرخوا؛ غيروا الإنسان فيصبح المجتمع سليما"[3]، فهذان المفهومان هما في حقيقة الأمر لا يعبرا عن قيمة الإنسان الحقيقية، لأنهما فصلا بين جزئيه المادي والروحي، إنه فكر قائم على أنقاض الثنائية الديكارتية التي تعتقد أن الإنسان جسد مفصول عن روحه وروح مفصول عن جسده[4].

لكن في حقيقة الأمر لايمكن الفصل بين الجسد والروح فالكل متكامل، ولذلك فإننا نعتقد أن الخطأ الذي وقعت فيه المثالية هو اهتمامها بالجانب الروحي من الإنسان، الذي جعلت منه برجا عاجيا تكتنفه مثالية قاتلة، أما المادية فجردته من قيمته الروحية ولم تهتم به إلامن الناحية المادية ف "الشخص ليس بروح وليس بمادة، لأنه لو كان روحا خالصة فسيعدم كل اتصال بالعالم، ولن تكون لديه وسيلة للعمل والتأثير، ولو كان مادة خالصة فقد كان سيكون وجودا شيئيا يفتقر إلى الحرية"[5]، فالفصل بين مادية

[1]-المرجع نفسه، ص 99.

[2]_المرجع السابق، ص99.

[3]-المرجع نفسه، ص 101.

[4]_رونيه ديكارت، مقالة في الطريقة ، ترجمة جميل صليبا، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1991م، ص 62.

[5]-جان لاكوا، نظرة شاملة على الفلسفة الفرنسية المعاصرة، ترجمة يحي هويدي، أنور عبد العزيز، دار المعرفة، القاهرة 1975م، ص 102-103.

الإنسان كجسد وبين جانبه الروحي إذن؛ هوضرب من خيال، فطبيعته تقتضي هذا التكامل الذي خلقه الله عليه، فالشخص دائما يتوق إلى الحرية، إلى الخلاص النهائي ولا يتحقق له ذلك حسب الشخصانيون إلا في تكامل الروح مع الجسد.

يعتقد جل الشخصانيين ومن بينهم مونييه، أن تشخصن الشخص لا يتحقق إلا في إطار الجماعة التي تضمن له التحول الجوهري من وحدته ككائن بيولوجي تطوقه الغرائز، إلى شخص لا يمكن أن يحد حركته التشخصنية إلا الموت، فهي حركة مستمرة من يوم ميلاده حتى يوم وفاته، هذه الحركة لا تكون إلا بتحقيق شرطين أساسين، هما الكائن والآخر، ومايقع بين الكائن والآخر هو حركة التشخصن، لكن هناك من الشخصانيين على غرار "نيدونسل" من يرى أن حقيقة الشخص هي مختفية وراء وحدته البيولوجية ووحدته المجتمعية، "هو بالأحرى باحث عن المطلق وعن اللانهائي، ولذلك فهو وراء الصفتين الجسدية البيولوجية والاجتماعية اللتين ينغرس فيهما "[1]، نلاحظ هنا مدى تأثر الشخصانية خاصة في فرنسا بالديانة المسيحية، فهي دائما بحث في اللانهائي (إله).

إن الشخصانية التواصلية تؤمن بأن للإنسان بعدين: بعد واقعي؛ فهو مترامي الأطراف في هذا الكون، أي ينغرس فيه، فهو امتداد له، لكنه في بعده الآخر، فهو عبارة عن طاقة تموينية روحية متجذرة يستلهمها من الإله، "يظل دائما انبثاقا يجعل منه اتجاها دائما نحو اللاتناهي وإمكانية يمكن تعريفها بأنها « طاقة إنسانية طاقة، إلهية »"[2].

يرى الشخصانيون أن طبيعة الإنسان كشخص يتلقى تنشئته الأولى في ظل الأسرة، التي تضمن له ما يحتاجه من الناحية البيولوجية بالإضافة إلى الرعاية النفسية، وتعده تربويا لكي يأخذ مكانه ضمن إطاره الاجتماعي، فهذا التشابك لا يمكن الفصل بين عناصره في ظل شخصية الفرد، فهو "التشابك البيولوجي، الاجتماعي و الروحي [وعليه يصبح الإنسان] كائنا شخصانيا وسوسيولوجيا في الأسرة "[3].

إن هذه التنشئة الأسرية، هي التي يتلقى الشخص في كنفها معنى الحق والواجب والالتزام، ولايتم هذا في أي شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي الأخرى، ماعدا الشكل الذي يعتمد الأسرة كنواة أساسية لنسقه الاجتماعي، وهذا ماتحث عليه جميع الشرائع السماوية، ولذلك فإننا نعتقد أن الشخصانية التواصلية هي حركت سعت وتسعى في سبيل تكوين شخص، يؤمن بذاته ويثق فيها من جهة، ومن جهة أخرى يؤمن بأن لا قيمة له إلا في إطار مجتمع يحتك به يؤثر فيه ويتأثر به.

يشدد "مونييه" في فلسفته على الاندماج الاجتماعي العالمي للشخص، في حين يقف موقف المناهض للنزعة الفردانية ويعتبرها العدو اللدود لأي عملية تشخصن، فهي بالنسبة له "مجموعة من العادات والمشاعر والأفكار و المؤسسات التي تنظم الفرد في مواقفه الانعزالية والدفاعية"[4].

3. أزمة المجتمع الصناعي بين التقوقع على الذات والتفتح على الأخر

إن الحضارة الغربية القائمة على أساس الفردانية حسب "مونييه"، ماهي إلا قتل الشخص بعزله عن الآخرين، وبالتالي هي لاتخدم الشخص بقدر ما تعيقه في عملية تشخصنه وتكوين ذاته وصقلها؛ إن تأكيد "مونيه" على الشخصانية والوقوف ضد

[1]-المرجع السابق، ص 103.

[2]-المرجع نفسه، ص 103..

[3]- ت. أ. ساخاروفا، من فلسفة الوجود الى البنيوية (دراسات نقدية للإتجاهات الرئيسية)، مرجع سابق، ص 102.

[4]-المرجعالسابق، ص 28.

الفردانية جاء كرد فعل للخلط بين مفهوم الشخص ومفهوم الفرد، ويرجع هذا الخلط إلى الاستعمال العام لدى الأشخاص في حياتهم اليومية، فإذا ذكر الشخص فهم منه معنى الفرد، وإذا ذكر الفرد فهم منه معنى الشخص، هذا الخلط بين المفهومين أوقع الشخصانية والمدافعين عنها في حرج كبير، لذلك نجد في الكثير من المرات أن "مونييه" ينبه في كتبه إلى أن الشخصانية التواصلية ليست هي الفردانية، بل على العكس فهو يدافع عن الشخصانية من موقف أنه عدو للفردانية، لأن هذه الأخيرة تقوم على أساس تحقيق منفعة الفرد بغض النظر عن منفعة الآخرين، وأن حرية الفرد تكمن في ذاته بمعزل عن حرية الآخرين، في حين أن الشخصانية تقوم على أساس أنه لاحرية للفرد إلامن خلال تحقيق حرية الآخرين، ولا يحقق الفرد تشخصنه وقيمه العليا إلا في إطار مجتمع يحتك بأفراده ويكوّن شخصيته في إطاره، فإذا كانت الفردانية، "هي كل نزعة ترى في الفرد أو في الفردي إما صورة الواقع الأكثر جوهرية و إما أعلى درجة قيمية"[1]، فإن الشخصانية تعطي القيمة الأولى والأخيرة للشخص لكن الشخص الذي يحقق ذاته في إطار وحدة "سوسيولوجية" وبالتالي هي على نقيض من الفردانية، وإذا كانت الفردانية كذلك، هي النواة الأساسية التي تأسست عليها الرأسمالية التي أعطت القيمة للفرد على حساب الجماعة وللمنفعة الخاصة على حساب العامة، وأن المنافسة بين الأفراد هي التي تؤدي إلى الإبداع والابتكار، فإن الشخصانية لاتهمل الفرد لكن الفرد لاقيمة له إلا في إطار معشري يحدد له معالم شخصيته، فالحضارة الصناعية التي أساسها الفرد "تحتضر [اليوم] أمام أعيننا والتي [تعد حسبهم] من أفقر الحضارات التي عرفها التاريخ فهي نقيض الشخصانية وأقرب أعدائها منها"[2].

لايفهم من العبارة السابقة إلا مفهوم واحد، وهو أن الحضارة الغربية التي مجدت وتمجد النزعة الفردانية هي أفقر الحضارات التي مرت عبر تاريخ الإنسانية، والسبب في ذلك راجع إلى قيام هذه الحضارة على أسس فردانية، والحل حسب "مونييه" يكمن في إعادة الفرد إلى إطاره الاجتماعي، إذ لايمكن تحقيق حضارة بمفومها الحقيقي إلابالموازنة والتوفيق بين الفرد والجماعة في إطارحضاري تؤطره أخلاق شخصانية.

إننا نعتقد أن جل الشخصانين، ورأسهم "مونييه" في قطيعة تامة مع النزعة الفردانية، فهم يعتبرون أن الفرد هو ذلك الكائن البيولوجي أما الشخص يتميز بالإضافة إلى ذلك بالبعد الروحي، وعليه يجب حسب "مونييه" "أن نجعل العنصر الروحي تابعا للعنصر المادي لجعل الذات أساسية ونجعل العنصر المادي تابعا للعنصر الروحي لجعلها أثبت"[3]، فالشخص عندهم قبل كل شيء هو روح وقيمة ووعي وفكر وحرية ومسؤولية بالإضافة إلى أنه ملتزم نحو الآخرين، ماعدا ذلك فإن القليل منهم فقط لا يعارضون بين مفهوم الفرد ومفهوم الشخص مثل "جان لاكروا" الذي يرى أنه انطلاقا من الوحدة الفردية تتحقق الوحدة الشخصية، بمعنى انطلاقا من الفرد وصولا إلى الشخص، فلا يمكن أن تقوم عملية التشخصن حسبه إلا انطلاقا من كون الإنسان فردا ذو أبعاد سوسيولوجية[4]، وعليه فإن شخصانيته تعطي الأولوية للفرد الذي يختلف كمفهوم جوهري في أبعاده المتمايزة عن مفهوم الشخص.

[1]-المرجع السابق، ص 28.
[2]-المرجع نفسه، ص 28.
[3]-المرجع السابق، ص 58.
[4]-Jean Lacroix, Le Personnalisme, source, fondementactualité, Paris,Chroniquesociale, 1981. p. 23-24.

يرى "مونييه"، أن مفهوم الشخص يقوم على أساس السيطرة على الأشياء والاختيار الحر وينزع دائما إلى التغيير، تغيير العالم، في حين أن مفهوم الفرد يقوم على أساس الخضوع للمادة التي تفرق وتفتت، وبمعنى آخر فالشخص يتعالى على المادة ولايخضع لها، وهو الذي يقوم بأنسنتها وليس العكس، "بل يرتد إليها ليحولها ويفرض عليها بشكل تدريجي سلطان العالم الشخصي"[1].

فالشخصانية عنده هي التزام وحياة عملية وحركة تاريخية ونضال من أجل إعلاء شأن الشخص وكرامته، ويذهب "جون لاكروا" إلى أبعد من ذلك، حيث اعتبر الشخصانية بأنها "ليست حركة سياسية ولانزعة فلسفية وإنما هي ماتقدمه الإنسانية من جوهرية الإنسان"[2]. وعليه يمكننا القول أن شخصانية "مونييه" التواصلية تتمحور حول أربعة نقاط وهي:

أ) إنها بحث في الحقيقة: إذ أنه لا ينبغي بحث الحقيقة في ظل ذات منعزلة عن الآخرين ومنغلقة على نفسها، بل يجب البحث عن الحقيقة في ذوات الآخرين، لأن الحقيقة لاتتجلى ولاتنكشف إلامن خلال الاتصال والحوار مع الآخرين، فالآخر جزء منّا ونحن جزء منه.

ب) إنها مسؤولية: بحيث أن الشخص يتحمل مسؤوليته نحو الآخرين، فهو يحمل على عاتقه أفراح وأحزان الآخرين، لأنه جزء من كيان معشري يحتك بهم ويحتكون به.

ج) إنها عطاء: لأن حركة الشخصانية ليست مجابهة وصراع فقط، بل هي كذلك سخاء وعطاء، ولا يكون هذا العطاء إلا من خلال محبة الآخرين.

د) إنها إخلاص: إذ أننا ملتزمون أمام الآخرين ولذلك يجب أن نكون مخلصين في حبنا وصدقنا لهم حتى يتحقق هذا الإخلاص، فالشخصانية على حد تعبير "مونييه" "فهم الآخرين، تحمل مسؤولية، العطاء، الإخلاص"[3].

ثانيا: الشخصانية الواقعية وأزمة الإنسان المعاصر

1. شخصانية واقعية وفق أطر إسلامية:

يلاحظ كل مهتم بفلسفة محمد عزيز الحبابي الذي يمثل بدوره الشخصانية الواقعية الإسلامية في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، تلك النزعة النقدية التي يمارسها على الحضارة الغربية، خاصة في جانبها الروحي منه، فهو يرى أن الحضارة الغربية حتى وإن حققت للإنسان المعاصر بعده المادي، فإنها هدمت جانبه الروحي، إن لم نقل قضت عليه تماما، لأن النزعة التي تنزع إليها الحضارة الغربية، هي نزعة مادية بالأساس، هذا ما جعل الإنسان المعاصر يتشبث بكل ما هو مادي ويعزف عن كل ما هو روحي، وهكذا أصبح الإنسان المعاصر ذا بعد واحد وهو البعد المادي فقط مما انعكس على شخصيته سلبا، لأن شخصية الإنسان إلى جانب بعدها المادي، فإنه لا يمكن عزلها عن بعدها الروحي، يقول محمد عزيز الحبابي واصفا الحضارة الغربية وإلى ما آلت إليه "لقد آل الأمر بالحضارة إلى تخلف الأخلاق وعدم مسايرتها للتقدم الفكري والتقني فاستمر [انحطاط الحضارة الغربية] يتفاقم، كما آل الأمر بالأخلاق، وقد جف معينها، إلى أن تجعل الحضارة تائهة تتعثر"[4].

---

[1]-امانويل مونييه، الشخصانية، ترجمة محمود جمول، المنشورات العربية، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص22.

[2]-Jean Lacroix, Le personnalisme, anti – ideologique, la France, p.v.f.1eme. ed 1972, p. 39.40.

[3]-أمانوال مونييه، الشخصانية، مصدر سابق، ص 31.

[4]-المصدر نفسه، ص 31.

إن الحضارة الغربية حسب محمد عزيز الحبابي، أدت بالإنسان المعاصر ولا سيما الإنسان المسلم – لكونه جزء من تلك الإنسانية التي تسيطر عليها الحضارة الغربية الآن – إلى السأم و التيه والقلق أفقدته جانبه الروحي الإيماني نتيجة تجفيفها لمنابعه الأخلاقية وأهم منبع للأخلاق هو المنبع الديني، فعملت على هدمه، لذلك توصف بالحضارة اللادينية، فكان لذلك تأثير كبير على مسار حياته وتوجهاتها الأخلاقية، فتخلى عن أخلاق الجماعة، و هي الأصل فيه، لأن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه كما يقال، وتمسك بأخلاق غريبة عن طبعه، وهي أخلاق "الفردانية" التي تقوم أساسا على المنفعة والمصلحة الخاصة، في حين غابت عنه العلاقات الاجتماعية التي تؤطرها أخلاق تواصلية بين أفراد المعشر الذي ينتمي إليه، ولذلك اعتبر الحبابي أن "الغرب يعمل على توسيع انتشار الفردانية، بكيفية تبعث على القلق"[1].

إن الحضارة الغربية شهدت تطورا كبيرا في جانبها المادي، هذا التطور لم يسايره التطور الذي كان منتظرا في جانبها الروحي، مما أفلسها من الناحية الروحية، خاصة في جانبها الأخلاقي منه، فانعكس ذلك الإفلاس على الإنسان المعاصر، فالحضارة إن لم تجعل الأخلاق تساير التطور حسبه، "أصبحت [حضارة] مجردة من الجانب الدينامي المبدع، وصارت في تدحرج إلى الاندثار"[2]، وذلك بالفعل ما تعاني منه الحضارة الغربية، لأنّ القواعد الأخلاقية إذا انغلقت على نفسها، ولم تساير التطور المادي المذهل الذي تشهده الحضارة الغربية، أصبحت هذه الأخلاق تشكل خطرا حقيقيا على الإنسان، لأن الإنسان يعيش في محيط متغير، ومن ثمة وجب على أخلاقه أن تتغير وفقا للتغيرات التي تحدث باستمرار في محيطه، لكن ما حدث للإنسان المعاصر عكس ذلك تماما، فجانبه الروحي، وخاصة منه الأخلاقي، اغفل تماما، بينما جانبه المادي يشهد تطورا مذهلا، هذا ما جعل الإنسان اليوم يعيش خطرا حقيقيا، فالخطر إذن كامن في إقامة قواعد أخلاقية ثابتة في وسط متغير، لأن "الأخلاق من القوى الأساسية التي تسير الحياة الشخصية للإنسان، وتنظم علاقاته مع الآخرين، وجب أن تكون قابلة للصيرورة، مثل بقية الأشياء التي لها علاقة بالإنسان والمجتمع"[3].

إن انغلاق الأخلاق على ذاتها وعدم مسيرتها للتطورات العلمية والاقتصادية التي يشهدها العالم اليوم، جعل تلك التطورات تهدد الإنسان باستمرار، ففصل العلم عن القيم الأخلاقية التي من المفروض أن توجه أبحاثه المختلفة، وبذلك أصبح العلم في حد ذاته يشكل خطرا على الإنسانية اليوم، لكن الخطر لا يكمن في طبيعة العلم، وإنما حدث ذلك عندما فصل عن أبعاده الأخلاقية، فتحول من خادم للإنسان إلى مهدد له، على الرغم مما حققه للإنسان من رقي وازدهار، أخرجه من حالة التوحش إلى حالة التحضر، لكن عندما لم يتقيد العلم بقواعد أخلاقية أساء إلى الإنسان، وأصبح إنسان اليوم مهددا بواسطته، كما هي حال "القنبلة الذرية، والقنبلة الهيدروجينية،والإنسان الآلي، [فأصبح الإنسان يطرح] من جديد، موقف القيم الأخلاقية من الصناعة، ومن الأبحاث العلمية"[4]، ذلك ما ولد في ذهنية الإنسان المعاصر الخوف من المصير المجهول، بل أصبح تحت رحمة ما صنع، فطغت على حياته الآلة، التي ولدت في نفسيته الملل والسأم من الحياة، فأفقدته طعمها، فدمر الإنسان بذلك نفسه، فوصف الحبابي الوضعية

[1]–المصدر نفسه، ص 61.
[2]–المصدر نفسه، ص 55.
[3]– المصدر نفسه، ص 56.
[4]– المصدر السابق، ص 49.

التي آل إليها الإنسان اليوم ولا سيما الإنسان المسلم، بقوله: "قد طغت الآلات على حياتنا وأخضعتنا لمشيئتها، لذا نتساءل فيما إذا كان الجزء الصميمي من شخصيتنا، المكون الحق لذواتنا سيتحول، في نهاية الأمر ليصبح بدوره آليا؟"[1].

إن الشرخ الذي أحدثته الحضارة الغربية بين الأخلاق والمعاملات الاقتصادية، أفرز ما يعرف بالنظام الرأسمالي، الذي يقوم على مجموعة من الأسس، كان يعتقد الإنسان بأنها تؤدي به إلى التطور والرخاء والازدهار الاقتصادي، لكن في نهاية المطاف ظهر بأنه نظام استغلالي مقنن، قائم على أساس المزاحمة[2] لا غير، إنه نظام اقتصادي قائم على أساس "الإنتاج! الربح! المال! التملك!"[3]، فتلك المعادلة السابقة الذكر التي يقوم عليها النظام الرأسمالي لم تنجب للبشرية والعالم الإسلامي إلا الأزمات، أزمات مالية، أزمات اجتماعية، وأزمات أخلاقية، لأنّ العالم اليوم " أمست معاييره الأولى هي العمليات البنكية، والمزاحمات التجارية، حيث تحبك الأزمات. وتشن الحروب الاستعمارية الامبريالية، والحروب «الأهلية» وحروب الاقتصاد والنفوذ"[4]، ذلك هو عالمنا اليوم، الأقلية تسيطر على الأغلبية، والقوي يمحق الضعيف، فانتشرت الأخلاق الفردانية التي تدعوا إلى المنفعة والمصلحة الفردية لا غير، فانكمش وانغلق الإنسان على ذاته، بدل تواصله مع بني جنسه، فانكمش الدور التواصلي للأخلاق، فاسحة المجال لانتشار أخلاق الأنانية وحب الذات.

إن الإفلاس الأخلاقي الذي عاشته وتعيشه الحضارة الغربية، يعود بالدرجة الأولى إلى الأساس الذي قامت عليه، وهو الأساس المادي البحت، دون مزاوجته بالبعد الروحي، مما أدى إلى قتل تلك الجوانب الإيمانية والأخلاقية في شخصية الإنسان، فنتج عن ذلك أن فصل إنسان اليوم الأخلاق عن جوانبه الحياتية، وخاصة منها العلمية، والاقتصادية، ولذلك كانت النقطة التي انطلقت منها الحضارة الغربية "نقطة خاطئة في كل ميدان. واتجه رقيهم كله إلى هدف غير صحيح إنهم انطلقوا من نقطة الإلحاد والمادية"[5].

لقد انعكس كل هذا على إنسان اليوم، فأدى به إلى هدم جانب مهم من الجوانب التي تكون له شخصيته وتحافظ له على توازنها،آلا وهو الجانب الروحي، فنحت لنفسه إلها جديدا، وهو إله المادة، وعزف عن كل ما هو روحي، أخلاقي و إيماني، وبذلك أصبح يعيش في دوامة ملؤها السأم والضجر والتيه الأخلاقي، وهذا ما جعل محمد عزيز الحبابي يصف هذه الحالة بقوله: ب "هجومات الهموم والسأم والضجر [التي أخذت] تزحف، بلا منطق، وعلى أوسع نطاق، وليست الانحرافات إلا مظهرا من مظاهر عديدة للأزمة الروحية الحالية"[6].

2. الأثر السيئ للحضارة الغربية المادية الهادمة لشخصية المسلم.

إن تأثير تلك الحضارة الغربية المادية، لم يتوقف عند حدود ما سببته من مآسي للإنسان الأوربي في حد ذاته، بل أثر ذلك على مجموع الإنسانية ككل، ولاسيما الإنسان المسلم، الذي هدمته هذه الحضارة المادية و أثرت سلبا على تكوين شخصيته،

---

[1]- المصدر نفسه، ص 114.

[2]- المزاحمة مصطلح يستخدمه الحبابي ليشير به، للتفرد والاحتكار والمضايقات ونجاح الأقوياء ويختلف تماما عن مصطلح المنافسة.

[3]- محمد عزيز الحبابي، من المنغلق الى المنفتح، مصدر سابق، ص 60.

[4]- المصدر نفسه، ص 48.

[5]- أبو الأعلى المودودي، الأمم المريضة في العصر الحديث، ضمن كتاب، الحداثة وانتقاداتها نقد الحداثة من منظور عربي- إسلامي، إعداد وترجمة، محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2006م، ص 20.

[6]- محمد عزيز الحبابي، دفاتر غدوية، الدفتر الأول، أزمة القيم، دار المعارف، القاهرة 1991م، ص 29.

فأفقدتها قوتها، التي كانت تستمدها من قوة دينها، فكان لذلك تأثير سيئ بطبيعة الحال على العالم الإسلامي، لأنّ قوة الشعوب تكمن في قوة أفراها.

إن تبلور تشخصن الفرد المسلم كانت تحدده تلك المجتمعات الإسلامية التي تقوم على مبادئ روحية مستمدة أصلا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لكن هذه المجتمعات لم تحافظ عل ذلك التماسك الروحي، بل فقدته تحت ضغط عامل الغزو الحضاري، فكان ذلك بمثابة السيل الجارف على المجتمعات الإسلامية فأفقدها كل مقوماتها الروحية، فاسحة المجال أمام تلك الموجة المادية الإلحادية، فأصبحت تلك المجتمعات تعيق تشخصن أفرادها مما أدى إلى ضعفها المشهود، وهذا ما ذهب إليه أيضا الأستاذ "أبو الأعلى المودودي" عندما قال: "سواء هذا الشرق أو الغرب، وهذه الأمة المسلمة أو غيرها من الأمم، فقد حلت بها جميعا نكبة واحدة، وهي أنّه قد استولت عليها حضارة نشأت في أحضان المادية الخالصة هذه الحضارة قد أسست حكمتها النظرية والعلمية على قواعد خاطئة"[1].

إننا نلاحظ اليوم ويوميا كيف يحدث ذلك الانزلاق الخطير، بتنفير الإنسان من كل ما هو روحي إيماني ديني، وإغرائه بتلك الجوانب المادية الواهية، مما أدى إلى هدم شخصيته، فأصبحت أخلاق المسلم اليوم، أخلاق فردانية، نفعية، متخليا عن أخلاقه الإسلامية التي تقوم على أساس التعاون والتواصل بين أفراد المجتمع الواحد، ولعل هذا ما جعل الأستاذ محمد عزيز الحبابي يقول: "إن الكائن البشري منظومة متكاملة تعمل، بطبيعة نوعية، على تناسق وتناغم الوظائف البيولوجية، والانفعالات النفسانية والكيف المجتمعي، المسترسل"[2].

إننا نعتقد، أن الشخصانية الإسلامية لا تقوم لها قائمة، إلا من خلال تحررها من تلك الحضارة المادية الإلحادية، التي أدت بالإنسانية، إلى انحدار وإفلاس روحي أخلاقي لا مثيل له.

إن الديانة الإسلامية هي ديانة روحية بالأساس، لذلك كان على هؤلاء الذين يدينون بهذه الديانة أن يعطوا الأولوية في تكوينهم الشخصي لبعدهم الروحي قبل المادي، حتى يحققوا توازنهم المطلوب، إن ذلك التوازن الذي يكفله الإسلام لشخصية من يدين به كفيل بجعل شخصيته، شخصية قوية مستلهمة لقوتها من ذلك التوازن المادي الروحي، والذي يدعو إليه الإسلام، ولذلك فإن الأخلاق المادية النفعية رفضها أهلها قبل غيرهم، فنلاحظ يوميا ذلك التأفف للضمير الأوربي، من تلك الأخلاق التي جرتهم إلى انهيار روحي أخلاقي خطير، ولنا في ما رآه الأستاذ "أبو الأعلى المودودي" خير دليل على ذلك، فيقول واصفا تلك الحضارة "بالشجرة الخبيثة [التي] أخذ يتأفف منها الآن أهل الغرب أنفسهم الذين كانوا غرسوها بأيديهم، لأنها قد خلقت في كل شعبة من شعب الحياة مشاكل وعقد"[3].

إن تلك الحضارة قد طمست شخصية الإنسان المسلم، فجعلت منه إنسانا غارقا في الماديات، متناسيا عالمه الروحي، وهذا ما جعله يعيش تناقضا على المستوى الشخصي، فالإسلام دين روحي قبل أن يكون ماديا، أما الحضارة الغربية، فهي حضارة مادية

[1]- أبو الأعلى المودودي، الأمم المريضة في العصر الحديث، ضمن كتاب، محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي، الحداثة وانتقاداتها نقد الحداثة من منظور عربي - إسلامي، مرجع سابق، ص 19.

[2]- محمد عزيز الحبابي، من المنغلق إلى المنفتح، مصدر سابق، ص 134.

[3]- أبو الأعلى المودودي، الأمم المريضة في العصر الحديث، ضمن كتاب، محمد سبيلا و عبد السلام بنعبد العالي، الحداثة وانتقاداتها نقد الحداثة من منظور عربي- إسلامي، مرجع سابق، ص 21.

إلحادية، وأصبحت شخصية المسلم اليوم تتأرجح بين هذين المعلمين، ولا يمكننا نحن كمسلمين أن نتجاوز ذلك التناقض إلا من خلال "تطبيق التربية بمعناها الواسع، وأن تؤنسن التقنيات، وذلك بأنسنة علاقاتنا فيما بيننا ومع العالم بفضل الاتجاه نحو حضارة أساسها العمل"[1].

إن مخزون الطاقة الروحية التي يكنها الإنسان المسلم، والتي يستلهمها من ديانته الإسلامية، كفيلة بأن تحميه من تلك الحضارة الإلحادية وقيمها الأخلاقية المادية الهدامة، التي تعيق تكوينه الشخصي والذي ينعكس عليه هو أولا ثم على مجتمعية الإسلامي ثانيا.

خاتمة:

خلاصة القول إن الاتجاه الشخصاني في الفلسفة الغربية المعاصرة يرى أن الحضارة الغربية التي تمجد النزعة الفردانية الانعزالية القائمة على الفلسفة النفعية البراغماتية أدت بالإنسان المعاصر خاصة منه الأوروبي إلى الانعزال والتقوقع على الذات، مما حد من قدرته على التخشصن والأنسنة، والحل حسب مونييه يكمن في انفتاح الأنا على الآخر عن طريق حركة تواصلية بين الفرد و إطاره الاجتماعي، إذ لا يمكن تحقيق تطور حضاري حقيقي إلا من خلال هذه الحركة التواصلية المؤطرة بأخلاق شخصانية.

أما بالنسبة لمفهوم الشخصانية الواقعية الإسلامية عند محمد عزيز الحبابي يظهر من خلال تناوله لأهم العوامل التي أدت إلى هدم وإعاقة تشخصن الفرد المسلم خاصة منها تأثير الحضارة الغربية المادية الخطير على الحد من تطور تشخصن شخصية المسلم، والحل حسبه يكمن في إعادة بناء شخصانية إسلامية تستقي مفاهيمها الأساسية من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والاغتراف من تراثنا الإسلامي، إذن ما يجمع الشخصانية التواصلية والشخصانية الواقعية الإسلامية أنهما تتفقان في التشخيص و الرؤية والطرح، لكنهما تختلفان في الحل.

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربية:

1-ت.أ. سخاروفا، من فلسفة الوجود الى البنيوية (دراسات نقدية للاتجاهلت الرئيسية) ترجمة، أحمد برقاوي، دار دمشق، ط1، 1984م.
2-محمد عزيز الحبابي، دفاتر غدوية، الدفتر الأول، أزمة القيم، دار المعارف، القاهرة 1991م.
3-الحبابي محمد عزيز، من المنغلق الى المنفتح، ترجمة محمد برادة، المكتبة الانجلوالمصرية، القاهرة 1971م.
4-ديكارت رونيه، مقالة الطريقة، ترجمة جميل صليبا، المؤسسة الوطينية للفنون المطبعية، الجزائر 1991م.
5-سبيلا محمد وبنعبد العالي عبد السلام، الحداثة وانتقاداتها، نقد الحداثة من منظور عربي-اسلامي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2006م.
6-عبد اللطيف كمال، اسئلة الفكر الفلسفي في المغرب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003م.
7-عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة،ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984م.
8-لاكروا جان، نظرة شاملة على الفلسفة الفرنسية المعاصرة، ترجمة يحي هويدي. أنور عبد العزيز، دار المعرفة، القاهرة 1975م.
9-مونييه امنوال، الشخصانية، ترجمة محمود جمول، المنشورات العربية، بيروت بدون تاريخ نشر.

باللغة الأجنبية:

10-jean Lacroix, Le Personnalisme,source, fondement, actualité, Paris, Chroniquesociale, 1981
11-Jean Lacroix, Lepersonnalisme, anti – ideologique, la France, p.v.f.1eme. ed 1972.

[1]- محمد عزيز الحبابي، من المنغلق إلى المنفتح، مصدر سابق، ص 115.